الشهيد التائب

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم»
«وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها»
«وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها»
«أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله»
«فتربصوا حتى يأتي الله بأمره»

obeikandl.com

(١)

دوى صوت النذير من أعلا الصفا ، فرددت صداه جنبات مكة . . واستقر الفزع فى دور كبرائها وعظمائها . .

إنه صوت السماء . . يعلن رسالة الحق على لسان شريف قريش وسيدها ، ويؤذن بزوال عهد غاشم ، ذل فيه الإنسان لأخيه الإنسان . . وأمست شجرة الحياة من خلاله ترتوى بدماء الضعفاء ، لتأكل ثمرتها حفنة الأغنياء . .

وصمد رسول الإنسانية أمام سيل الطغاة كالطود ، يدفع بحقيقة السماء باطل الأرض ، ويتحدى بمفرده تلك الرءوس المتطاولة من قومه ، وقد شاخت على الكفر ، وجفت على الشرك وعبادة الأوثان . .

وطرق صوت الضمير باب آل عتبة بن ربيعة ، وأخذ يرن فى جنباتها بأحاديث الإنسانية الرفيعة ، التى صورتها نفس محمد بن عبد الله بلاء وفناء فى سبيل عقيدته ، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وتحرير العقول من أغلال الخضوع لأصنام لاتسمع ولا تبصر ، وإنابة القلوب إلى من بيده ملكوت السموات والأرض . .

ولكن أنى لحساب الضمير فى آل عتبة أن يزيل عنهم قهر الجاهلية ،الذى امتدت جذوره من أعماق السنين إلى أعماق أصلابهم ، فورثهم الجاه العريض فى قومهم ، والمكانة المرموقة فى الذروة من عشيرتهم . . أنى لحساب الضمير أن يخلع عنهم رداء المجد الهائل ،

ليلبسهم ثوب المذلة ، مع أولئك الضعفاء من أتباع محمد ﷺ .. أنى لحساب الضمير أن يزيل عنهم ذلك الوهم القاتل ، حين يصبئون عن دين آبائهم ومن مضى من أسلافهم ، فيكونون أحدوثة الأحاديث على لسان العرب أجمعين . ! ؟

وتوقف عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، عن الإيمان بالله ورسوله . . أما أبو حذيفة بن عتبة فلم يستطع أن يرد نور الحق عن قلبه ، فأعلن إسلامه لله ، وإيمانه برسوله ، وأسلمت من ورائه زوجه الوفية ، سهلة بنت سهيل بن عمرو .

وصبت قريش جام غضبها على أبي حذيفة ، فهو الشريف القرشي الذى فتح أعظم ثغرة فى سياج الأسرة العربية ، لينفذ منها غيره من الشباب القوى ، إلى حيث الوقوف إلى جانب أعداء اللات والعزى . . ومناة الثالثة الأخرى !

ووقف عتبة بن ربيعة من ابنه موقف الأب الحانى أمام صوت الضمير ، لايحاربه فى عقيدته ، ولكنه لايملك أن يصد عنه الأذى والاضطهاد . . بينما دأب الإبن على دعوة أبيه إلى الإسلام طمعا فى حلمه ، وحرصا على هدايته . . وحبا فى أن يذوق حلاوة الإيمان كما ذاقها أصحاب محمد ﷺ .

• • •

وأسلم حمزة بن عبد المطلب . . فنزل نبأ إسلامه على قريش كالصاعقة ، فهو الشاب الذى لايبالى بقوة الأقوياء ، ولا كثرة الأعداء ، حين يؤمن بحقيقة فيدافع عنها . . إنه الآن قد آمن

بحقيقة الحقائق ، وإن نفسه قد صارت ملكا لها ، وروحه قد غدت فداء لنصرتها وإعلاء لوائها .

وخاف عتبة بن ربيعة أن يقع بقريش مالا يكون بالحسبان . . وقد رأى درر الشباب تنفرط من عقد الأسر القوية درة درة ، بعد إسلام أبي حذيفة ، ليحاربوا — في صف محمد ﷺ — آباءهم ، ويسفهوا معه أحلامهم وأوثانهم . . فانطلق إلى نادى القرشيين في حجر الكعبة — ومحمد ﷺ جالس وحده في جانب آخر يعبد ربه — ثم نادى فيهم ، وقال :

— يامعشر قريش ، ألا أقدم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ! ؟

فأجابوه قائلين :

— بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه . .

وسار عتبة في وقاره إلى رسول الله ، ثم جلس إليه ، وأخذ يتمعن في وجهه المشرق ، وكأنه لم يره من قبل . . ثم قال له :

— يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت ، من السطة في العشيرة ، والمكانة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، مزقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . .

وتبسم رسول الله وقال :

— قل يا أبا الوليد . .

وتمعن عتبة فى وجه رسول الله مرة أخرى ، وأطال النظر إليه ، وكأنه قد تحير فيما يريد أن يقوله . . ثم قال :

— يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . . وإن كنت إنما تريد به شرفا ، سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك . . وإن كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا . . وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . .

وصمت عتبة ، وأطرق برأسه إلى الأرض . . فقال له الرسول ﷺ :

— أقد انتهيت يا أبا الوليد ؟

فأجاب عتبة قائلا :

— نعم . .

فقال ﷺ :

— فاستمع منى . .

ثم تلا عليه الرسول سورة السجدة . . « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . . »

ومضى رسول الله فى السورة ، وسجد عند السجدة ثم استأنف

التلاوة .. وعتبة من خلالها مسبل العينين ، سابح الفكر ، وقد ألقى بيديه من خلفه ليعتمد عليهما فى حلمه الجميل ، حتى إذا انتهى ﷺ من السورة ، اعتدل الرجل من استلقائه ، وقد أخذ منه صوت الحق كل حسه . . فلم يستطع أن ينطق بشىء . . ! !

وربت الرسول الأعظم على كتفه وهو يقول :

— قد سمعت يا أبا الوليد ماسمعت ، فأنت وذاك . . ! !

وقام عتبة يجر أقدامه جرا إلى ملأ قريش . . وقد رأوه مشتت الفكر ، موزع الفؤاد ، لا يستقيم وجهه على حال .. فقال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به !

وجلس الرجل بينهم ، وقد احتل الإعياء كل جسده ، فقالوا له :

— ما وراءك يا أبا الوليد ! ؟

فقال :

— ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ! ! والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يامعشر قريش ، أطيعونى . . وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيـــه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ . . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ! !

ونظر الملأ بعضهم إلى بعض غرابة ودهشة ، وقالوا له :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! !

وهز عتبة رأسه استخفافا وهو يقول :

— هذا رأيى . . فاصنعوا مابدا لكم . . ! !

واشتد إيذاء المشركين لرسول الله والذين آمنوا معه ، وأخذت قريش تنزل النكال بالمسلمين كل النكال . . ولم يكن بد أن تفتتن حفنة التوحيد ، أو تهاجر من مكة إلى أقصى الآفاق . . وكانت الأخرى . . واستجاب المسلمون إلى أمر رسول الله إليهم بالهجرة إلى الحبشة . . حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

واستقر أبو حذيفة وزوجته سهلة بدار الهجرة ماشاء الله لهما ، راضيين قريرين ، فقد أصبح الله ورسوله أحب إليهما من النفس والأهل ، والمال والوطن ، بل والدنيا بأسرها . . وبتلك الديار النائية ، من الله على أبي حذيفة بنعمة الولد ، ليبدو من أعماقه معنى جديد من معانى الوفاء للعقيدة ، والشوق لرسول الله ، فأسمى ولده محمدا . .

• • •

وأسلم عمر بن الخطاب فى مكة . . فخفت حدة المشركين على المسلمين ، وخافت قريش أن تواصل كيدها ، حين رأت رسول الله يخرج بأصحابه لأول مرة ، ليتحدى سلطان الشرك فى صفين عظيمين ، على رأس أحدهما عمر ، وعلى رأس الآخر حمزة ، وأخذوا يكبرون ويهللون فى طريقهم إلى جوف الكعبة . .

وعاد أبو حذيفة وزوجه إلى مكة مع من عاد من الحبشة ، ولكن ما لبثت قريش أن أنزلت النكال بالمسلمين من جديد . . وكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، ولكن أبا حذيفة آثر البقاء مع رسول الله ، وليكن الثمن ما يكون . . !! إنه ليود أن يهدى أباه إلى

الإسلام . . فأبوه مايزال فى حرب مع ضميره ، حتى صار يعانى من آلام نفسه ما يعانى ، إذالرجل يعلم من أعماقه أن محمدا ـ ﷺ ـ على الحق ، وأن أعداءه على الباطل ، ولكن هيهات هيهات أن يكسر عتبة هذا القيد الشديد من إرث الجاهلية ، فيخاطر بنفسه وآل بيته . . وإذن فليقف عتبة بمنأى عن هـــذا الصراع الدامى بين قريش وبين محمد وأصحابه . . وليأمل أبو حذيفة فى أبيه أن يسلم وجهه لله ، إن قريبا وإن بعيداً . . فإن أبى إلا أن يظل على كفره ، فلا أقل من أن يكون عامل تفريق لكلمة قريش فى مستقبل الأيام . .

(٢)

وخرج رسول الله ﷺ إلى قبيلة ثقيف ، ليدعوها إلى الإيمان بالله وحده ، وخلع ماهى عليه من عبادة حجر لايضر ولا ينفع ، ولا يعرف من عبده ممن لم يعبده .. فاستقبلته القبيلة بأقبح مايصدر عنه قوم مردوا على الكفر والنفاق ، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم وعبيدهم فرجموه بالحجارة .. وانطلقوا من خلفه يسددون بهـــا مرماهم من جسده الشريف ، حتى شجوا رأسه ، وأدموا قدمه .. وما رجعوا عنه حتى رأوه يرتمى فى حفرة فى الفلاة ، كأنه قد فارق الحياة .. فلما أفاق من إعيائه ، حمل نفسه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة قريبـــا منه ، ليستظل تحت حبلة عنب من وهج الشمس ولهيب الحصباء . .

ورآه عتبة وشيبة دون أن يراهما ، فأخذ منهما حاله كل مأخذ . . واشتد عليهما وخز الضمير أن يلجئه القوم إلى ذلك العنت الشديد ، وهو يدعوهم إلى رسالة التوحيد ، فأخذا يتناجيان فى أمره ويقلبان

صحائف صبره وصدقه .. ولكن أنى لها أن يخففا عنه ألمه ولو بكلمة من طرف اللسان .. إنهما يعلمان الثمن الذى سيدفعانه غاليا !!

ومن خلال اللحظات الرهيبة ، شق سكون الحائط صوت ملائكى ، أرهفت له آذان عتبة وشيبة ، لتسمع نغمة الخلود على لسان سيد قريش ، وهو يناجى ربه بعد ما لقيه من عذاب ثقيف ، فيقول :

ـ اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ! إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ..

وتحركت فى عتبة وشيبة نوازع الفطرة ، وقد نزلت كلمات الرسول الأعظم منهما منزل العاطفة الجارفة .. فلم يملكا أن يحبسا فى قلبيهما نزعة العطف ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له « عداس » وأعطياه طبقا من جريد كان أمامهما ، وقالا له :

ـ خذ قطفا من العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ..

وانطلق عداس بالطبق والعنب إلى رسول الله ، ووضعه بين يديه ، ورجاه أن يأكل .. فتبسم ﷺ له ، وقال :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ..

ثم أكل منه ما شاء الله أن يأكل .. كل ذلك وعداس جاث على ركبتيه ، يتفرس فى وجه الرسول ولا يثنى عن النظر إليه ، وكأنه فى حلم جميل .. !!

وتبسم الرسول لعـــداس مرة أخرى ، وقد أحس ﷺ أن الرجل يريد أن يقول شيئا .. بينما انطلق لسان عداس يقول :

ـ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ! !

وسأله الرسول :

ـ ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس .. وما دينك ؟

وأجاب عداس قائلا :

ـ نصرانى .. وأنا رجل من أهل نينوى .

وأطرق رسول الله برأسه وهو يقول :

ـ من قرية الرجل الصالح .. يونس بن متى ! ؟

وانطبعت على وجه عداس علائم الدهشة ، فقال:

ـ وما يدريك مايونس بن متى ! ؟

وأجاب الرسول قائلا :

ـ ذاك أخى .. كان نبيا وأنا نبى ..

وارتعدت فرائص عداس ، فاندفع قائما .. وأكب على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه ، والرسول يدفعه فلا يرجع .. حتى هدأت عاطفته ، وجلس ..

وشعر الرسول الأعظم بحرج عتبة وشيبة ، وقد رأى أحدهما

يميل على الآخر يهمس فى أذنه ، وكأنهما يتخوفان المصير .. فحمد الله على نعمائه ، وشكر لعداس، وتأهب للمسير . .

وعاد عداس إلى سيديه ، وألقى الطبق أمامهما دون اكتراث على غير عادته .. ونظر شيبة لعتبة وهو يهز رأسه ، وقد مزج ابتسامته بعجبه ، فقال :

ـ أما غلامك فقد أفسده عليك أمر محمد !!

ورفع عتبة بصره إلى عداس وقال :

ـ مالك ياعداس .. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه !؟

وضرب عداس الأرض بجريدة كانت فى يده ، ليرهف آذان الرجلين لما يقول .. ثم قال بصوت مرتفع لم يتعوداه منـــه من قبل:

ـ ياسيدى !! ما فى الأرض شىء خير من هذا .. لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . .

ثم انصرف . . وتركهما فى حيرتهمـــا لصوت الضمير ، يهز أوصالهما أمام حقيقة السماء ماثلة قاهرة ، فى شخص محمد بن عبدالله . .

* * *

وأذن الله لرسوله بالهجرة ، فأمر ﷺ أصحابه بالفرار بدينهم من أذى قريش إلى المدينة ، بعد أن هدى الله أهلها إلى نوره والإيمان برسوله

وأسرع أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومعه زوجته سهلة بنت سهيل ، لينالا شرف السبق إلى أمر رسول الله ، واستقرا بالمدينة عدة أشهر حتى لحق الرسول بأصحابه .

ومضت سنة وبعض سنة ، اكتملت من خلالها للمسلمين أسباب القوة والمنعة .. وأذن مؤذن الجهاد لرفع لواء الحق فى بدر ، فكان أبو حذيفة فى مقدمة الصفوف ..

وأقبلت قريش بقضها وقضيضها ، وسدت الأفق بخيلها ورجلها .. ونظر الرسول الأعظم إلى جحافل الشرك فهاله عظمها وخطرها .. ثم نظر إلى أصحابه فى قلتهم العزلاء ، فاشتد خوفه وإشفاقه ، ولم يلبث أن نظر إلى السماء متضرعا إلى ربه فقال :

ـ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك .. اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان ، فلن تعبد بعد ذلك فى الأرض . . اللهـــم أحنهم الغداة ..

ونزلت سكينة الله على رسوله وعلى المؤمنين ، وانطلق لسان النبى ليعلن أصحابه باستجابة الله لدعائه . . وتلا عليهم قول بارئهم : « سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والســـاعة أدهى وأمر . . »

وتركزت عيون المسلمين فى عسكر أعدائهم ، يتعرفون من بعيد على وجوه القوم .. فهذا ينظر إلى أبيه أو عمه أو أخيـــه ! ويتمنى مخلصا أن يصدق الله ورسوله فيه ، فيقتله فى ساحة الانتصار للحق ، والفداء لرسالة التوحيد ..

ورأى الرسول عين أبى حذيفة تتركز فى أبيه عتبة ، وقد ركب جملا أحمر يشق به صفوف قريش .. ورأى ﷺ علائم الحزن

تكتنف وجهه كلما أعاد النظر إليه مرة بعد أخرى .. إن أبا حذيفة ليعلم فى أبيه عذاب الضمير ، وإنه ليعلم أنه خرج مستكرها ، ولو كان الأمر بيده ما خرج .. وإن الرسول نفسه ليعلم هذه الحقيقة ، فأراد أن يقررها على ملأ أصحابه ، فقال :

ـ إن يكن فى أحد من القوم خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر .. إن يطيعوه يرشدوا ..

* * *

وبعثت قريش عمير بن وهب ليحزر لها عسكر المسلمين ، وليحصيهم عدا لو استطاع .. فعاد إليها وقد هالته قوة الإيمان ، وبدت له دعائم العزة قوية راسخة ، وعلم أن النصر لن يفوت قوما خرجوا من أجل الآخرة .. وأعلن لقومه هذه الحقيقة الماثلة ، فقال لهم :

ـ قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع .. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ! ! فإذا أصابوا منكم عدادهم فما خير العيش بعد ذلك .. فروا رأيكم ! !

وأسرع حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة ، ليوقفه على النبأ العظيم .. وليستعين به على حقن دماء قريش ، فقال :

ـ يا أبا الوليد .. إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر .. ؟!

وبادره عتبة ، وقد ارتاع من قوله ، فقال :

ـ وما ذاك ياحكيم ؟

فقال حكيم :

ـ ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى الذى أصابه أصحاب محمد ..

وأجابه عتبة على الفور :

ـ قد فعلت .. أنت على بذلك ؛ إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله .. فأت ابن الحنظلية ـ أباجهل بن هشـــام ـ فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره ..

ووقف عتبة خطيبا فى ملأ قومه فقال :

ـ يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداو أصحابه شيئا .. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ،أو رجلامن عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ماتريدون ..

ومن خلال الموقف الرهيب ،كان حكيم يعرض على أبى جهل رأى عتبة فى الرجوع بالناس ، فثارت ثائرته ، واستشاط غضبه ، وصاح فى الناس ،وقال :

ـ انتفخ والله سحره حـــين رأى محمدا وأصحابه . . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .. وما بعتبة بن ربيعة ماقال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور . . وفيهم ابنه أبو حذيفة ، فقد تخوفكم عليه . ! !

وطلب أبو جهل ، عامر بن الحضرمى من وسط الناس ، وصعد به على مرتفع من الأرض ، وصرخ به وهو يشير إلى عتبة فقال :

ـ هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقـــد رأيت ثأرك بعينيك ، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك !

وصاح عامر من فوره ، وهو يبكى أخاه عمرا ، ويقول :

ـ واعمراه . . واعمراه . .

واضطرب أمر الناس ، وارتفعت أصواتهم بالحرب ، ودقت طبولهم للزحف والقتال . . بينما تأسف عتبة للمصير الرهيب على يد أبى جهل . . ولم يملك أن قال :

ـ سيعلم مصفر الإست من انتفخ والله سحره !!

(٣)

والتحم الفريقان المتباينان فى بدر . . قريش فى ألف مقاتل أو يزيدون ، والمسلمون فى ثلثمائة رجل لايحملون إلا سلاح المسافر . . السيوف فى القرب . !

واستبسل جند محمد ﷺ ، فلم يعبأوا بكثرة عدوهم ، ولا وفرة سلاحه . . إنهم لا يقاتلون حول عرض أو مغنم ، ولكنهم يقاتلون فى سبيل عقيدة أخذت بمجامع قلوبهم ، فصار الموت فى سبيلها أحب إليهم من الحياة . . فما كادوا يلتقون بحافل الشرك ، وقد أغارت عليهم من كل جانب ، حتى أزاحوهم على الفور . . وقتل حمزة بن عبد المطلب رأس مقدمتهم الأسود بن عبد الأسد المخزومى . .

ووقف القرشيون يتدبرون الأمر الخطير ، وقد راعهم قتـــل

الأسود ، وفت فى عضدهم بأس المسلمين واستماتتهم خلف قائدهم الأعظم . . ولجأ رءوس الكفر بعضهم إلى بعض يقلبون صحائف الرأى ، بغية القضاء على أهل التوحيد ! !

ومن خلال الموقف الرهيب بدا لقريش تضعضع كيانها رغم كثرتها . . ولولا ما نفخه فيها شيطان أبى جهل من الخوف على سلطانها بين العرب فى قابل الأيام ، وما ينتظرها من الفناء على يد محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه لو سالمته فى أول معركة لها معه . . لعادت على أعقابها إلى مكة لا تلوى على شىء ! !

وبدا لقريش فوق ذلك أن شريفها عتبة بن ربيعة يود بجدع الأنف لو استطاع أن يعود .. إنه يكاد أن ينطق بينهم بأن محمدا ـ ﷺ ـ وأصحابه على الحق ، وأن قومه على الباطل .. وأن صوت الضمير ما يزال يرن فى أذنيه من تجارب السنين بأن الحق لابد أن ينتصر ، ولو قامت فى وجهه قوى الدنيا ، وكان بعضها لبعض ظهيرا ..

وأراد عتبة ـ وقد لحطه الغم من كل جانب ـ أن يضع حدا لآلام نفسه . . فهو لا يريد أن يموت فى الميدان شأن غيره من عداد قومه ، فلا يدرى من هو قاتله . . إنه حين رأى جند محمد ، قد رأى منيته تقترب منه ، وتقترب لامحالة . . فأراد أن يختار موته أفضل مما ينتظرها غيره من جحافل قريش وأحابيشها على السواء ! !

وبرز ابن ربيعة من صفوف قريش بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، ونادى رسول الله من أقصى الميدان ، ودعا إلى المبارزة ، وقال :

— يا محمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا ! !

واستجاب الرسول لنداء عتبة ، فنظر إلى أصحابه وقال:

— قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على . .

وتقدم أبو حذيفة بن عتبة إلى رسول الله ، يطلب منه أن يجيزه إلى مبارزة أبيه ، حتى لا يقتله غيره فربما أخذته بمقتل أبيه جاهلية ، فيجد فى نفسه على قاتله . . ولكن رسول الله لم يقبل منه ، فرده عن عزمه ، وربت على كتفيه ، فعاد إلى الصف مطيعا . وإن بدا بين المسلمين مربد الوجه ، ممتقع الأسارير ، قد أخذت منه العاطفة ، وثارت فى نفسه الانفعالات . . إنه لا يزال يرى من أبيـــه حلما وفضلا وعقلا . . وإنه ما يزال يطمع أن يثوب أبوه إلى رشده . . حتى فى هـــذه اللحظات اليائسة . . فيؤمن بعد كفر ، ويهتدى بعد ضلال . !

ونادى عتبة بن ربيعة من أقصى الميدان مرة أخرى ، على الثلاثة الذين أخرجهم رسول الله ليتعرف أسماءهم ، فأجابوه تباعا :

— عبيدة بن الحرث .. حمزة بن عبد المطلب .. على بن أبى طالب

فما ملك عتبة أن قال :

— أكفاء كرام . . !!

وتقدم الثلاثة نحو الثلاثة . . فانتصرت كلمة الإسلام على الفور ، وخر عتبة وشيبة والوليد صرعى ، على مرأى من المعسكرين .. وعاد أبطال النصر إلى صفوف المسلمين بين التكبير والتهليل .

* * *

والتقى الجمعان فى الملحمة الطاحنة ، وأخذت سيوف الإسلام

تحصد رقاب الشرك حصدا . . وحمى الوطيس . . ونزلت ملائكة الرحمن تضرب أعداء الله فوق الأعناق ، وتضرب منهم كل بنان .. فما استقامت قريش على قائمة ، وفر المشركون يطلبون النجـــاة ، والمسلمون من ورائهم لا يبقون منهم على أحد . . !!

ونسى أبو حذيفة ما كان من مصرع أبيه وأخيه وعمه على الشرك ، فكان كالأسد الهائج ينقض على جحافل الكفر انقضاض الموت ، ويفعل بأعداء الله الأفاعيل . . وهو من خلال ذلك يعرض نفسه على الشهادة فى سبيل الله فلا يناالها . . ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

ونادى رسول الله جنود الحق فى ساحة النصر . . فقال :

— إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البحترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العبـــاس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرها ..

وحركت كلمات الرسول الأعظم الكوامن فى نفس أبى حذيفة من جديد ، فانطبعت أمام عينيه صفحات سريعة من حياة أبيه . . ورأى من خلالها كيف خرج أبوه مستكرها هو الآخر . . وكم كان يود أبو حذيفة أن يعصم الله دمه فى هذه الملحمة ، طمعا فى إسلامه بعد انتصار كلمة الحق وانهيـــار صرح الباطل . . ولم يملك أبو حذيفة نفسه وقد غلبته العاطفة ، وهدت من كيانه شتى المشاعر ، فصاح يقول لرسول الله :

— أتقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ، وتترك العباس . . !! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف . ! !

وتبسم الرسول الأعظم وقد ملكه الإشفاق على أبي حذيفة ، ونظر إلى عمر بن الخطاب من خلفه ، وقال :

— يا أبا حفص . . أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف . ! ؟

وأخذت عمر هزة الغضب لقول أبي حذيفة ، ورفع سيفه وقال:

— يارسول الله . . دعني فلأضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق . .

وملك الإشفاق رسول الله على أبي حذيفة مرة أخرى . . فهو يعلم أن أبا حذيفة مؤمن صادق الإيمان ، وما دفعه إلى قوله غير نزعة العاطفة التي لا تتجرد منها نفس في لحظات الحيرة ، حين يضطرب من داخلها ميزان الحكم على الأمور . . وأراد ﷺ أن يبدي لعمر عذر أبي حذيفة وهو ينهاه عن قتله حين جهر بعصيانه ، وقال ﷺ :

— ياعمر . . لقد رأى أبو حذيفة مصرع أبيه بعينيه . ! !

* * *

وانعكست على قلب أبي حذيفة أضواء الحقيقة ، فبدا له من خلالها ظلم نفسه لنفسه حين عارض رسول الله ، واشتد على قلبه وخز الضمير ، وهو ينظر إلى ماضيه الطويل الحافل بالصدق والصبر والفداء ، يتحطم على محنة من محن التجارب والابتلاء . . واستبد به الضيق أن تخذله نفسه في موطن الرضى والتسليم لأمر الله على لسان

رسوله . . حيث انتصرت نفوس أخرى على نزعة الهوى ونزغ الشيطان . . فهذا يقتل أباه ، وهذا يقتل أخاه ، وذاك يقتل عمه أو خاله أو رجلا من عشيرته . . وهو حين يفتدى بذلك دعوة الله ويشترى رضاء رسول الله ، يكون قرير العين ، راضى القلب ، مرتاح الفؤاد . . حتى إنه لا يقف به الرضى عن أمره إلا حين تذهب نفسه هى الأخرى فى ميدان الانتصار لكلمة الله وإعلاء لوائه بين العالمين . .

وأطبقت الدنيا بضيقها على صدر أبى حذيفة ، فصيرته كالحطام ، لا يكاد يستقيم جسده على قدميه أمام خطيئته مع رسول الله . . وأخذ يلوم نفسه ويعنفها ، ويذكر ما قاله النبى ، فيستضىء له قلبه ، ويعلم أن الرسول لا ينطق عن هوى ولا يصدر عن غرض ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى . . وتبدو له حقيقة العباس بن عبد المطلب ، الذى نهى الرسول عن قتله ، فيعظم أمامه الفارق بينه وبين أبيه عتبة ، فالعباس مسلم فى أعماقه من قديم ، حتى إنه ظل يمد رسول الله بأخبار قريش منذ هاجر إلى المدينة ، ليأخذ ﷺ لكل أمر عدته ، وهو حين خرج مع قريش فى بدر ، لم يخرج كما خرج عتبة ، وإنما خرج ليخذل عن رسول الله قوى الشرك ما استطاع ، ولقد استطاع أن يخذل عنه الكثير . .

وتدور بأبى حذيفة رأسه ، فيسندها على ركبتيه ، وقد تشبث جسده بالأرض من فرط الإعياء ، وينظر إليه الرسول الأعظم

فيزداد به إشفاقا على إشفاق ، ويزداد أبو حذيفة بإشفاق الرسول حزنا على نفسه ، وندما على مافرط من لسانه . . ولا يرى من تكفير لذنبه إلا أن تستأنف الحرب مع قريش أوزارها ، فيموت فى الميدان شهيدا . . ولكن هيهات هيهات ، فلقد تم النصر ، وقتل من رءوس الكفر من قتل ، وفر من استطاع الفرار . . وبذلك ذهب الأمل فى الشهادة ، ولو إلى حين . .

* * *

وأمر رسول الله ﷺ ببنـــاء قليب يدفن فيه قتلى المشركين ، وأخذ المسلمون يجرون إليه رءوس الكفر ، واحدا إثر واحد . .

ومن خلال المنظر الرهيب ، ألقى النـــبى الأعظم نظرة على أبى حذيفة ، فإذا الكآبة بادية على وجهه ، وقد رأى المسلمين يجرون أباه إلى القليب . . فتقدم منه ﷺ وقال :

ـــ يا أباحذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شىء ! ؟

وأجاب أبو حذيفة جواب المؤمن الصادق ، ليطلع رسول الله على ما يختلج جوانب قلبه من الرضى بقضاءالله ،فقال :

ـــ لا والله يارسول الله ، ماشككت فى أبى ولافى مصرعه .. ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلماوفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك ..

وتبسم رسول الله لأبى حذيفة ،وأظهر له الرضى والحب ، وشمله

بالعطف والحنان ، ومسح على صدره ، ودعا له بالخير ..

وعلى رأس القليب ، وقد سوى المسلمون التراب على من فيه .. وقف ﷺ يناجى صرعى الكافرين ، فقال :

ـ يا أهل القليب .. ياعتبة بن ربيعة .. ياشيبة بن ربيعة .. ياأبا جهل بن هشام .. بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس .. هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا .. فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا .. !؟

ودهش المسلمون لخطاب رسول الله إلى صرعى المشركين . فقالوا :

ـ يارسول الله .. أتنادى قوما قد جيفوا ! ؟

فأجابهم الرسول الأعظم على الفور فقال :

ـ ماأنتم أسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى !!

* * *

ومضت بدر .. وقر المسلمون بنصر الله .. ودارت عجلة الزمان مسرعة على صفحة الشهور والسنين ، وأبو حذيفة لا يجد من ضيق نفسه مخرجا .. إن الرسول ليواسيه فلا يخفف ذلك من ألمه ، فقد آلى على نفسه أن يدفع ثمن الخطيئة بيعا لله واستشهادا فى سبيله ، وكلما لاطفه المسلمون وعظموا مقامه ، كلما أفاض لهم من شكوك نفسه ، وآلام فؤاده .. وما كان يملك إلا أن يقول لهم فى كل موطن :

ـ ماأنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا ، إلا أن تكفرها عنى الشهادة !!

وتستعر الحرب بين رسول الله وبين أعدائه ، وينهض المسلمون فى كل غزوة خلف النبي الأعظم .. ويسرع أبو حذيفة إلى المقدمة عند كل لقاء ، لعله أن ينال الشهادة ، ولكنه لا يظفر بها .. قاتل فى أحد وقاتل فى الخندق ، وقاتل فى حنين والطائف وتبوك ، وحضر جميع المشاهد مع رسول الله ، وهو لاهم له من الخروج إلا أن يصدق الله فى قتال أعدائه حتى النصر أو الموت .. ولكنه عاد منها جميعها دون بغيته ، ليحيا ، لا كما يحيا غيره فى بحبوحة الرضا بنصر الله ، ولكن ليستأنف حياة الضيق والسأم ، والخوف والندامة .

وصعد رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهو راض عن أبى حذيفة كل الرضى .. ولكن ذلك لم يقعد بأبى حذيفة عن طلب الشهادة ، ليطمئن بها قلبه على مصيره حين يغادر الحياة الفانية ، وليكون فى منازل الشهداء الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ..

* * *

ودعا أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ المسلمين إلى قتال المرتدين ، فارتفعت ألوية الجهاد فوق أحد عشر جيشا .. وفى أخطر وجهة سار إليها أنصار الله ، كان أبو حذيفة فى مقدمة الصفوف من جيش خالد بن الوليد إلى اليمامة ، لحرب بنى حنيفة ، والقضاء على فتنة مسيلمة الكذاب ..

وكانت محنة ، دارت فيها الدائرة على المسلمين عند أول لقاء ، وكثر عدد من استشهد .. وصار أبو حذيفة يطلب الشهادة لنفسه

خلال بلائه فى مقدمة الصفوف فلا ينالها . . وكادت البقية المؤمنة أن تتفرق فى البوادى منهزمة راجعة ، لولا ما كان من أمر خالد حين مرق بفرسه وسيفه وسط جيوش الكفر الجبارة ، وهو يذكر المهاجرين والأنصار بعهودهم ، ويصيح فيهم بأعلى صوته ويقول :

ـ واحمداه . . واحمداه . .

واجتمعت الكلمة ، ورخصت النفوس ، وتكتلت الصفوف ، وحمل زيد بن الخطاب راية المهـــاجرين . . ودارت رحى الحرب شديدة عاتية ، وثبت المسلمون لبطش عدوهم . . واستشهد حامل الراية زيد . . فأسرع إليها أبو حذيفـــة ليحملها من بعده ، وهو يصيح فى المسلمين من خلفه ، ويقول :

ـ ياأهل القرآن . . زينوا القرآن بالفعال . .

واستبسل أنصار الله ، فانقلب ميزان المعركة ، وصارت الريح للمسلمين . . وانهزم أعداء الله . . وانطلق معاوية بن أبى سفيان من خلف خاله أبى حذيفة إلى راس الفتنة السوداء مسيلمة ، فذبحـــه بسيفه . . وبذلك تمت كلمة الله للذين آمنوا . .

ومن خلال النصر الحاسم ، سطر أبو حذيفة فى سجل الخلود صفحة التوبة الكبرى . . ففاز بالشهادة . .

وفى تلك الرقدة الأبدية ، نظر المسلمون إلى وجه أبى حذيفة ، ليشهدوا تلك البسمة السمحاء على محياه . . إنها بسمة الرضى بمقعـــد صدق عند مليك مقتدر . .